مفتش المدارس

للكاتب الباكستاني: م آثار طاهر

استفسر المفتش من فلاّح كان يحمل محراثه إلى سقيفة نجّارٍ أسفل الشارع عن المدرسة.

ـ آه... أجل هنا مدرسة في مكان ما... وأعتقد أنها خارج القرية. وأشار بإصبع مشققة طلاها الغبار إلى الطريق الطالع من القرية.

كانت الشوارع مليئة بالمطبات والطين و تسرب إليها كثير من المياه النازحة من البيوت الطينية... فيما اتشحت أخرى سلمت من الماء ـ بالغبار ـ وانتهت تلك الشوارع فجأة حيث بدأت الحقول فما كان من المفتش إلا أن سار عبر درب رطب بين حقلين. وعلى بعدٍ بصر بسائق دراجة متجهاً ناحيته وما أن اقترب منه حتى توقف سائق الدراجة ونزل عنها قبل أن يقف باحترام له:

ـ أين المدرسة ؟

ـ المدرسة؟

ـ أجل!

أترى شجرة الشيشام تلك ـ قال الدراج ـ مشيراً إلى شجرة بعيدة ـ إنها تحتها.

ـ هل بإمكانك أن تأتي معي فترينيي إياها؟

وغمرت القروي موجة زهو إذ إنه قدر له أن يمدّ يد العون إلى سيد جليل من المدينة وأعلن على الفور موافقته. وشعر بالفخار يكلل هامته تارة أخرى، إذ تخيل نفسه ومدير المدرسة وطلابها أو أي عابر قروي ينظرون إليه وهو بصحبة ذلك الباشا... شأنه لاشك سيعلو في قريتهم الغافية... وأحس لذلك بشيء من العجب والتيه انتفخ لهما صدره... وسارا سوياً.

ـ إنه رجل رائع يا سيدي «المدير أعني» ـ وهو يعمل بجد ودأب، ولم يجب مفتش المدارس ـ لقد أضحت عملية البحث عن المدارس عبر القطاعات استنزافاً لصبره وجلده ـ في المدن القذرة والأقاليم النائية والمراكز المثقلة بالدخان والغبار وفي القرى النائية حيث الطرقات ضيقة لا يمكن لسيارته «الجيب» أن تسير عبرها... والوضع الكئيب لذلك كله كم يبعث الحزن في النفوس... ويمتاح الإحباط والألم... كان عليه أن يعتاد ذلك عبر سنوات عمله الثلاث... لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة... فكل مدرسة كانت منبع وجع محض... نقص المؤن... لامبالاة الناس ـ تسيّب الطلبة وعتوّ المعلمين كان ذاك كثيراً جداً. ثم... ما الذي بوسعه أن يعمل؟ توصيات وتوصيات ترفضها إدارة التخطيط والتنمية تلك التي تخطط قليلاً وتطور أقل من القليل!.

ومر بحقول محروثة وأخرى قد اخضلّت بخضرة القمح البكر ـ وتجمعت المياه في أحد المواضع مشكلةً مستنقعاً تجمعت المياه فيه فركدت، فيما كانت الحشرات تطير فوقه أو تزحف على سطحه وعندما دنيا منها ارتفعت فجأة وقد علا طنينها... وروّح مفتش المدارس على وجهه طارداً إياها فيما كان الفلاح يسير دافعاً دراجته بخطوات واسعة رشيقة وأجراسها تهتك أستار السكون. كان حذاؤه ـ الذي ذهب لونه ـ مرقعاً في أماكن عدة فيما كانت رقعة الكعب تودّع موضعها في حرقة، ووجد المفتش صعوبة في السير بمحاذاته... ومرا بحقل ذرة في أكوازها لما تزل، وخلف الحقل سمقت شجرة «الشيشام» ! كانت شجرة ظليلة على حافة حقل حرث منتظراً طور نثر البذور، إلا أن أحداً لم يكن هناك... واستاء الريفي:

ـ لقد كانت المدرسة هنا ـ أنا متأكد من ذلك ـ قبل حرث الأرض على أقل تقدير!

ـ ثم؟

ـ لابد وأنها انتقلت إلى موقع آخر!

ـ ولكن... المبنى...؟

ـ المبنى؟!

أليس هناك مبنى؟

ـ كلا سيدي ـ لا مبنى هناك البتة، إن الناظر ينقلها معه ـ وأنى ذهب ارتحلت معه. وأبصر الريفي فلاحاً يحمل مجرفة على بعد حقول عدة، بعد أن أعيتهما الحيلة:

ـ هيه.. أنت ـ صاح فيه.

وتوقف الجسد المحني عن الجرف قبل أن يعتدل. كانت الشمس ساقطةً في عينيه فظللهما بيديه ونظر إليهما:

ـ أين المدرسة يا صاح ـ هنا أستاذ من المدينة ليراها.

ـ مدرسة؟ إن الأولاد بجانب حقل القصب، لقد رأيتهم على ما أظن متجهين إليه هذا الصباح ـ صاح الفلاح مجيباً.

كان حقل القصب كثيفاً غنياً بالمحصول فيما امتدت سيقان النبات في شموخ... وقد اصطبغت ببقع رمادية الاخضرار... وحمراء داكنة وغابت ذراها في رقصة نشوى متمايلة مع هزات النسيم. وفي الجهة الأخرى كانت هناك حقول عديدة قد حرثت وآن بذارها. ونظرا حولهما... لم يكن هناك أحد.

ـ لقد ذكر حقل القصب! قال الريفي في دهشة.

ـ أجل ـ قال المفتش ـ بات الأمر مملاً.

ـ ر بما كانت في الناحية الأخرى!

ـ اسمع! اذهب أنت وتحرّ عن ذلك ـ وعندما تجد المدرسة أخبرني ـ قال مفتش المدارس ماسحاً حاجبه.

وطرح الريفي دراجته جانباً وانطلق يبحث عن المدرسة المفقودة.

أما مفتش المدرسة فقد جلس مجيلاً بصره في الأرض السمراء والمحصول الماثل أمامه... في الاخضرار الممتد أمام ناظريه باهياً زاهياً... وقد تفاوتت درجاته وظلاله حتى إذا ما لامس طرف السماء كان في أوهاها.

ولم تكن ثمة غيمة في السماء... نعقت بضع بومات في أشجار بعيدة وحلّقت بعض الحِدَأ عالياً في كسل فيما عبرت فوقه عصافير جذلى مترنمة.

وسمع فجأة صياحاً عالياً ولما التفت حوله أبصر الريفي يعدو في اتجاهه وهو يومئ له، ونهض مفتش المدارس ـ فأحس تشنجاً في عضلاته لقد كان بلا لياقة... وهو يعرف ذلك جيداً ـ وراح يلوم نفسه ـ لابد وأن يفعل شيئاً فيما يختص بذلك! إنه يجلس في مكتبه، ويجلس في سيارته الجيب ثم ينهي ذلك السياق الطويل من الجلوس... بالجلوس في الكرسي الوحيد في المدارس التي يزورها.

ـ لقد وجدتها! قال الريفي الطيب باسماً متهللاً وهو يتقدمه كي يريه ضالّته!.

على أن مفتش المدارس تردد لوهلة ـ قد يتعرض للسرقة في ذلك الحقل الكثيف ولا شاهد هناك... وأخذ طريقه بعد لأي، ورؤوس القصب الخضراء تجرّح يديه ووجهه. وثنى ذراعيه فوق رأسه، لكنه تعثر مرات عدة لصلابة الأرض تحته وتبع السيقان المهتزة المفعمة بالضجيج حتى وصل إلى وسط الحقل وهناك... وفي بقعة قصّت أعواد القصب فيها فبدت ملساء، جلس أربعون طالباً القرفصاء على الأرض الجرداء... لم يكن تحتهم بساط يقيهم صلابة الأرض تحتهم... كان الهدوء يلفهم برداء يبعث الراحة في النفوس بدا ذلك جلياً لمفتش المدارس الذي قارن ذلك بصخب عيدان القصب إبّان توجهه إليهم.

واهتزت الرؤوس جماعياً في محاولة لحفظ جداول الضرب فيما انحنى قسم منهم على ألواحهم يستذكرون ما دوّن فيها... ووضعت بعض الألواح تحت الشمس كيما يجفّ مدادها الرطب. وجلس مسنّ يحمل عصا على كرسي مهلهل

متداعٍ... واهن... رمّم مرات عدة ودعّمت أطرافه بشرائح حديدية ثبتت فيه بمسامير أما ظهر الكرسي فقد ثبت بألواح ركبت على إطاره الأصلي... ذاك الكرسي الذي نسج وظهره ـ إبان ازدهاره ـ بالرَّوطان «أسل الهند» قد سمّر الآن بخليط من ألواح شتى.

ونهض معلم الصبيان فجأة وقدمه تبحث عن فردة حذائه:

ـ وقوف! صاح المرشد آمراً بالإنجليزية. وهب التلاميذ وقوفاً... ماسحين ما علق بظهورهم من غبار. واستغرق المعلم بعض الوقت كيما يتمالك نفسه فقد أذهله حضور المفتش، ونفض الغبار عن الكرسي الذي ترأس به طلبته، بقطعة قماش كانت فوق كتفه قبل أن يقدم المقعد للمفتش. ووقف الريفي منتظراً إشارة ما لكن المفتش شكره فاختفى كما جاء.

ـ حضور ـ احترام ـ حضور. صاح المعلم!.

ـ إذاً فهذه هي المدرسة ؟ قال المفتش مجيلاً بصره فيما حوله وقد قطب جبينه ـ وابتلع المعلم ريقه بصوت مسموع:

ـ نعم سيدي.

ـ وما الذي تدرّس لهم؟ وسمعه المفتش يزدرد ريقه بصعوبة ثانيةً:

ـ إني أدرسهم الأردو والحساب والإنجليزية والكتابة سيدي.

ـ من الكتب المقررة؟.

ـ من المقررات سيدي.

قال ذلك قبل أن يسلم المفتش مجموعة من الكتب المغبرة الرثة كانت تحت رجل الكرسي.

وجال المفتش بإصبعه عبر مقرر «الأردو» ثم توقف عند أحد فصوله وأمر طالباً أن يقرأ.

ونهض الصبي لكنه سرعان ما دلف في ردهات الارتباك والصمت!

ـ سيدي هذا كتاب للصف الرابع وهو طالب في الثاني!

ـ كم فصلاً لديك هنا ؟

ـ ستة سيدي ـ من الفصل الأول حتى السادس.

ـ وتبين للمفتش أن ما خاله مجموعة واحدة كانت في الواقع ستّاً!

ـ هذا هو الفصل الرابع سيدي! قال المعلم مشيراً بعصاه.

ـ اقرأ أنت ـ قال المفتش آمراً أحدهم.

ونهض الصبي فشرع يقرأ ـ كانت قراءته واضحة عالية النبرات.

لم يخطئ البتة، كما لم يتتأتأ.

وبدا جليّاً أن المعلم قد استردّ كثيراً من ثقته بنفسه تبعاً لذلك.

ـ اسأل فصلاً آخر سيدي ـ قال المعلم بحماس!.

وطلب المفتش من الفصل الثاني إجراء بعض عمليات الجمع فأتمها معظمهم بطريقة صحيحة. وقرأ طالبان من الفصل الأول الحروف الأبجدية دون خطأ بالطريقة الإيقاعية التي ساعدت على إجادتها صمًّا، وهم يتأرجحون في أماكنهم إلى الأمام والخلف، وتلا طالب من الصف السادس نشيداً بالإنجليزية بادئاً ومنتهياً على النسق الإيقاعي ذاته، وفكر المفتش... إنْ كان يحفظه عن ظهر قلب فشيء رائع... أو كان ضمن المقرر وهو ما يشك فيه فذاك أروع وعلى أي حال فقد كان المستوى الذي لحظه، فوق ما يُتوقع من طلبة المرحلة الابتدائية في المناطق الواقعة ضمن نطاقه حقاً... إنّ هذا المعلم يستحق ما اكتسبه من سمعة كالذهب.

ونهض مفتش المدارس وقد أثلج ما رآه صدره وسُمِعَ لكرسيه صرير فيما بدا المعلم مبتهجاً باشًّا مسروراً.

ـ وقوف/ صاح المرشد. بدا صوته أعلى من ذي قبل ـ وخرج مفتش المدارس أما المعلم فتبعه حاملاً عصاه. ستتحدث القرية وما جاورها عن ذاك الحدث أياماً عدة... وتنفس مفتش المدارس الصعداء حال خروجه من الحقل:

ـ لماذا تتنقل بمدرستك على هذا النحو ـ أليس بوسعك استئجار غرفة؟

ـ أستأجر سيدي؟!!!

ـ حسناً... لم لا تفعل؟

ـ كلاً لا أحد يرضى أن يعطينا غرفةً واحدة سيدي ـ إنهم لا يريدون مدرسة هنا ـ لقد أوضحوا ذلك مراتٍ عدّة ـ إذ إن كثيراً منهم يرون في التعلم مضيعة لأوقات الأولاد الذين يعتقدون بأن عليهم إزجاء الوقت في عمل نافع مفيد بدلاً من اللهو الدراسيّ! وبأنه حريٌّ بهم أن يساعدوا آباءهم في الحقول ورعي الماشية ـ لكن السيد «شادري علي محمد» الزعيم... هو الوحيد الذي ينظر إلينا بعين التفهم والعطف يا سيدي. إنه يدرك الأهمية القصوى للتعليم ـ إنه لا يستطيع تأمين غرفةٍ لنا أو حتى قطعة أرض لكنه منحنا ظل شجرة الشيشام التي يملكها لنتفيأه طوال الموسم حتى حل أوان حرث أرضها، وها نحن هذا الموسم نستخدم حقل القصب الذي يملكه.

ـ جميل أن قام بإخلاء وسط الحقل وإعداده لكم.

ـ نعم سيدي جميل أن يسمح لنا بتنظيف وسط الحقل ـ لقد قمت والأولاد بجني القصب في هذه البقعة سيدي ـ واستغرق العمل منا أياماً ثلاثة ـ حتى طلبة الفصل الأول عملوا معنا بكل دأب من الثامنة صباحاً حتى صلاة المغرب وبعدها كان لزاماً أن نتوقف عن العمل لحلول الظلام. وكنا نربط المحصول في حزَم نحملها على عربة السيد «شادري» التي كانت تجرها العجول. لقد قال السيد «شادري» بأن علينا أن نثمِّن التعليم ونقدّره فكانت تلك هي الطريقة

الوحيدة لإثبات ذلك. وخلع معلم الصبيان عمامته البيضاء فبدا أعلى رأسه وقد توسطت بقعة صلعاء شعره المطليّ بالحناء... كانت ثمة دموع تترقرق في مقلتيه... وتغير صوته لوهلة فبدا أجشًّا بعض الشيء متهدّجاً.

ـ لقد فقدت شعري لكثرة ما حملت على رأسي من رزم القصب. واعتمر عمّته ثانية ثم نظر إلى البعيد مشيحاً ببصره... وشرعا يمشيان جنباً إلى جنب... مفتش المدارس ومعلم الصبيان الذي كان يسير في خطى غير مستقيمة.

ـ سيدي! فقط لو كان لدنيا غرفة... غرفة واحدة فقط!.. قال المعلم في نبرات هادئة، فإن لم تكن غرفة فقطعة صغيرة من الأرض وسوف نبنيها... الأولاد وأنا... قد يستغرق الأمر فصلاً كاملاً... لكننا سننجز ذلك إن شاء الله.

ومضى مفتش المدارس في طريقه قُدما... دون أن ينبس ببنت شفة.

ـ أعلم سيدي أني قد أكون مغالياً بطلب رقعة أرض وبأنه لا أحد يرغب في وجود مدرسة هنا ولكني أرحب بإعطائنا أرضاً في أي مكان كان. هناك أرض في الناحية المهجورة من القرية سوف أكون سعيداً بإنشاء مدرسةٍ هناك سيدي هذا أفضل من....

لكن مراقب المدارس كان يلوذ بالصمت! صمت مطبق رهيب! يكاد يرى الاقتراح يرفض... هو واثق من ذلك إذ إن الحكومة لم تكن تسمح بتخصيص أرض لمدرسة ابتدائية... كان على الناس أن يقوموا بتأمين ذلك، فكيف سيتغير ذلك الآن؟ القانون هو القانون... وتنهّد في حسرة... قطعة أرض صغيرة... ثم؟... كم من المعلمين كانوا بمثل إخلاصه وتفانيه! كم منهم كان يهتم بذلك وكم منهم كان بإمكانه مواجهة لامبالاة كهذه... كلا لم يستطع استرجاع حالة واحدة طيلة سني عمله الثلاث... وركب سيارته الجيب فرد سلام المعلم البشوش بإيماءة من يده قبل أن تنهب عربته الطريق.... لم يستطع... كلا لم يستطع مواجهة نظرات الرجل المتوسلة.